لغو الصيف

للدكتور طه حسين

من هنا يا آنسة ؟ من هنا ؟ ثم أشار الى مائدة منعزلة كأنما هيئت لقوم يريدون الخلوة واعتزال الناس . فلما انتهيا اليها أعجبهما مكانها الجميل على شاطىء النيل فى ظل هذه الشجرة الضخمة الباسقة ، قد مدت أغصانها فى قوة الى أمام ، حتى إذا تجاوزت بها الشاطىء حنتها نحو الماء ، وغمستها فيه كأنما تريد أن ترتشف منه ، ونظر الصديقان من حولهما فلم يريا أحدا ، ومد الصديقان بصرهما أمامهما وأطالا النظر الى النيل وهو يجرى من تحت أقدامهما فى قوة الشاب وهدوء الحكيم ، ثم جلسا ، وقال الرجل لصاحبته: هنا يحسن الحديث . قالت: ويحسن الصمت أيضاً . وقد ظهرت على وجه صاحبها علائم تدل على أنه لم يفهم عنها ما أرادت اليه ، وأحست هى منه السؤال الذى لم ينطق به . فقالت وكأنها تجيب . ان تحدثنا تسافينا موسبق الحوار ، وإن سكتنا تسافينا نجوى الضمائر ووحى القلوب . وانا في كلتا الحالين لذة ، ولنا فى كلتا الحالين متاع ، فخذ بأيهما شئت . قال فأيهما تريدين ؟ قالت لا أريد شيئاً إلا أن نترك أنفسنا على سجيتها . فان انطلقت ألسنتنا سمعتها آذاننا ، وان آثرت نفوسنا الحديث الصامت وعته قلوبنا . قال وهو يضحك : أيسر من هذا كله وادنى الى التناول أن نتساقى ما يبرد الغليل ، ويرد عنا حر هذا القيظ ، ثم دق يدا بيد فى شىء من الرفق ، فاقبل الخادم وتلقى عنه أمره وانصرف

وكان هو طويلا نحيفاً ، ظاهر النشاط ، خفيف الحركة ، مكتمل القوة ، لا يظهر عليه ما يدل على سنه إلا خيوط بيض متفرقة قد أنتثرت فى شعر رأسه إنتثاراً . وكان عذب الصوت ، حازم اللهجة ، معتدل الحديث ، ولعله كان الى الابطاء فيه واصطناع الاناة ادنى منه الى الاسراع والتعجل ، وكان صوته يمتد من حين الى حين ، لا غضباً ولا تحمساً ، ولكنه كان مقتنعاً بما يقول ، فكانت حدة صوته ولينه يمثلان حظه من الايمان والاقتناع بما يقول .

وكانت هي ربعة ، ممتلئة الجسم ، مستقيمة القد ، معتدله القامة ، وكان وجهها مشرقا شديد الاشراق ، منسقا بديع التنسيق ، تمر به من حين الى حين سحابة رقيقة جداً ، من حزن لا يكاد يتبينها إلا من اعتاد أن يلقاها ويطيل صحبتها والتحدث اليها ، وكانت هذه السحابة الطارئة لا تمر بها وهى تتحدث ، إلا قطعت عليها الحديث فجأة ، ثم لا تلبث أن تزول فيتصل الحديث ، ولا تمر بها وهى تسمع إلا لمحت عن محدثها لحظة ثم تزول ، وإذا هي ترفع الى محدثها طرفا فيه شىء كثير جداً من الحياء والاشفاق ، وتستعيده ما قال فى صوت عذب ، ولفظ حلو ، يحسن مسه للآذان ووقعه فى القلوب . وكان صوتها هادئاً عريضاً يمثل نفسا هادئة غنية ممتلئة بالعواطف الخصبة والشعور الحى والعلم الغزير .

وكأن الفرصة أرادت أن ترضى حاجتها الى الصمت ، وحاجة صديقها الى الكلام ، فقد أقاما صامتين لحظة غير قصيرة ينظران الى سعى النهر امامهما ، كأنهما ينتظران شيئاً ، وكأنهما يلهوان بالنهر وسعيه الهادىء القوى عما يضطرب فى نفوسهما من الخواطر والآراء ، ومن العواطف والاهواء ، حتى إذا أقبل الخادم فهيأ المائدة وصف أكوابه وأطباقه ، وانصرف راضياً عن نفسه مبتسما لضيفيه ، نظرت هى الى صاحبها كأنها تسأله أن يبدأ الحديث فقال : وقد فهم عنها ما كانت تريد ، لسنا فى حاجة الى أن نبتديء الحديث ، وما علينا إلا ان نأخذه حيث تركناه حين انتهينا الى هذا المكان الهادىء الجميل . قالت فان هدوء هذا المكان وجماله قد انسيانى حدة ما كنا فيه من حوار ، واضطراب ما كنا نتبادل من رأى . فلننظر القضية من أولها . فلعل هذا الهواء الطلق وهذا المنظر الحلو ، وهذا السكون الساكن ، أن تكون قد ردتك الى شىء من الصواب وصدتك عما كنت فيه من جموح . فما أرى إلا أنك تظلم الأدب والأدباء جميعاً ، وتقسط على الشبان والشيب . وكم أحب لك أن تكون سمح النفس ، رضى الطبع ، مستعداً لشىء من التجاوز ، تعذر طيش الشباب ، وترفق بحدة الشيوخ . قال فاحب ان أعلم اين الشباب واين الشيب ، ومتى يكون الأديب شابا ، ومتى يكون الأديب شيخا . فهذا حديث طريف لم أسمع به فى مصر قبل هذه الأيام ، ولقد رأيت الأدباء منذ عرفت الأدب ينشئون الشعر ويقرضون الشعر على اختلاف اسنانهم وتفاوت حظوظهم من القوة والضعف ، فلا يختصمون فى شباب ولا شيخوخة ، وإنما يختصمون فى الرأى ويختصمون فى الفن ، يعين بعضهم بعضا ، ويدافع بعضهم بعضا ، لا يعتز الشيخ على الشاب بتجاربه وكثرة ما انتج من الآثار ، ولا يعتز الشاب على الشيخ بحداثته وقوته ، ونضرة شبابه ، واتساع الايام امامه ، وانبساط الآمال له . قالت لم تر ذلك من قبل ولكنك قد رأيته الآن ؟ فاى غناء فى أن تنكر

شيئاً حدث الآن لأنه لم يحدث من قبل، وأى فرق بينك وبين عامة الناس الذين يضيقون بالجديد، لا لشيء إلا لأنهم لم يألفوه ولم يطيلوا عشرته

إن فى الشباب نزوعا الى الفوز، وطموحا الى الظفر، وتعجلا لاتساع الشهرة وبعد الصوت، وكل هذا طبيعى، وكل هذا مألوف لأنه يلائم فطرة الشباب واخلاقهم، فلا تنكره عليهم، ولا تصرفهم عنه، فانى أخشى ان يفت ذلك في اعضادهم، وان يضعف من نشاطهم، وان يرد جذوتهم هذه الجميلة الى الخمود. قال لقد كنا شبانا كما كانوا، وكان لنا من رفاقنا فى الادب أساتذة قد سبقونا الى الحياة وتقدمت بهم علينا السن، واخذوا من التجارب العلمية والفنية بحظوظ لم نأخذ بمثلها، فما حسدناهم ولا انكرناهم، ولا جاهدناهم ولا قصدنا الى المكر بهم والكيد لهم، وإنما كنا نقفو آثارهم ونسمع لنصائحهم ونستعذب احاديثهم، ولمانا كنا نحس ما بينهم وبيننا من خلاف، فلم يكن ذلك يغرينا بهم، ولا يصرفنا عنهم، وانك لتذكرين كم كنا نستعذب احاديث حفنى ناصف، وكم كنا نحرص على ان نروى عنه كل ما كان يحدثنا به من هزل القول وجده. وانك لتذكرين انا كنا ننصرف عنه بعد الجلسة الطويلة معجبين به محبين له. ثم لا نلبث ان نستعيد ما سمعنا منه فننكر بعضه ونعرف بعضه الآخر، ولا يمنعنا ذلك من ان نتعجل عودته الى القاهرة آخر الاسبوع فنلقاه فنسمع منه ونحدث اليه. وما خطر لك ولا خطر لي ولا خطر لواحد من أصحابنا ان ينكر حفني ناصف لأنه كان شيخا. ولأننا كنا من الشبان، او يلوم حفنى ناصف، لأنه سبقنا الى الحياة والانتاج، فسبقنا الى الشهرة وبعد الصوت. إنما كنا نستعينه على ان نكون خيرا منه، وكان يعيننا على ذلك راضيا به مبتسما له راغبا فيه. قالت: فانى أحب لكم معشر الشيوخ ان تكونوا كحفنى ناصف وأمثاله من أساتذتكم، لا تضيقون بابنائكم ان ثاروا او تمردوا او لعبت برءوسهم نزوات الشباب. هنا قال صاحبها فى شيء من الغضب الضاحك: ومن زعم لك أنى شيخ، هذا شيء لا أقره ولا ارضاه. قالت وهى مغرقة فى الضحك، وما يعنيني ان تقره او لا تقره، وان ترضاه أو لا ترضاه، فانت شيخ سواء أردت أم لم ترد. ألست قد انفقت أكثر من ربع قرن تنشيء الرسائل وتنشر الفصول وتذيع الكتب؟ أليس قد اختلف اليك أجيال من الشباب فقرأوا ما كتبت، وسمعوا لما قلت، وتأثروا بهذا وذاك، فمنهم من ذهب مذهبك، ومنهم من ذهب مذهب فلان أو فلان من اصحابك، فكن شيخا او لا تكن، فانت أب على كل حال، ماذا أقول؟ بل أنت جد. فلم يختلف اليك جيل واحد وإنما اختلفت اليك أجيال، ولم تتخرج عليك طبقة من الكتاب، وانما تخرجت عليك طبقات. ولست أدرى ماذا يغيظك من الشيخوخة، وماذا يسوؤك منها؟ ولم تكره ان يراك الناس كما انت؟ بل لم تكره أن ترى نفسك كما أنت، ولم تريد ان تطمع فى غير مطمع؟ وتطلب ما لا سبيل اليه؟ فليس التصابى من الاشياء التى تحب أو يرغب فيها الرجل المحتشم، وقد عرفتك رجلا محتشما. فاجعل نفسك حيث أراد الله أن تكون، قال فى لهجة ما كرة وصوت عابث: فانت شيخة إذن، فقد كتبت الكتب واذعت الرسائل، ودبجت الفصول، منذ عشرين سنة، قالت بل منذ خمس عشرة سنة. قال بل منذ عشرين. قالت لم أكن أكتب حين شبت الحرب. قال بل كنت تكتبين، وانى لزعيم أن اذكرك بعض ما كتبت قبل أن تشب الحرب. قالت فاني لم اكن قد بلغت الخامسة عشرة. قال لا أقول انك شيخة فى السن، ولو قلت ذلك لكذبني ما أرى وما اسمع. فعلا وجهها احمرار شديد، ومست يده فى رفق كأنما تريد أن تضربه. وهى تقول: متى تدع هذا العبث. ومضى هو فى الحديث. فقال: أنت على نضرة شبابك شيخة فى الادب.

قد كتبت منذ زمن طويل، وعلمت اجيالا مختلفة من الشباب وتخرجت عليك طبقات مختلفة من الكتاب. قالت تعال نتفق. لسنا شيخين ولا شابين، وإنما نحن شيء بين ذلك وانت ادنى الى الشيخوخة وأنا ادنى الى الشباب. قال ولا هذا. فلا بد من ان نتفق على معنى الشيخوخة فى الادب، فليس يكفى أن نكون قد اصطنعنا الادب منذ زمن طويل، وأثرنا فى أجيال مختلفة من الكتاب لنكون شيوخا، وليس من الحق ان كل أب شيخ، ولا أن كل جد شيخ. فقد نكون آباء، وقد نكون أجداداً، ولكننا على ذلك لسنا شيوخاً. إنما الشيخوخة ضعف. وما أرى إلا أن الشيخ هو الذي أخذه الضعف، وبلغ منه العجز والفتور، فاضطر الى العقم، وحيل بينه وبين الانتاج. افترين انا قد انتهينا الى هذه الحال؟ انك تكتبين فى كل يوم، وانى اكتب فى كل يوم. والناس يقرأون لك ويقرأون لي، والناس يعجبون بك ويرضون عن بعض ما أكتب. قالت بعض هذا التواضع، ولكنه مضى فى الحديث فقال: وما زالت آمالك وآمالى فى الادب أبعد من ان تحد، وأوسع من ان تحصر، وما زلنا نتم الفصل او الكتاب.

(البقية على صفحة ٤٠)